مذكرة في مميزات التخطيط العمراني للمدينة الاندلسية

إعداد الباحث
خالد عبد الكريم أبوشنب
دكتوراة في التأثيرات المعمارية المقارنة
بين عمائر المماليك والأناضول من العصر
السلجوقي - عهد السلطان العثماني محمد الثالث

تعد هناك عدة أسس مؤثرة في التخطيط الإسلامي للمدينة الاندلسية سواء ما أقيم منها قبل الفتح وتجدد بعده أو ما أنشئ بعد الفتح؛ فيذكر المقدسي : **" أن الأندلس أنشىء بها بعد الفتح أربعين مدينة سهيلة في مناطق مرتفعة بعض الشيء ".**

ويرجع سبب ذلك إلى:

1- موروث الحضارات السابقة على الإسلام في تخطيط المدينة.

2- البعد الحربي للدولة الإسلامية في الأندلس ضد مملكتي ليون و قشتالة

3- الشريعة الإسلامية و أثر الفقه المعماري الإسلامي في ذلك خاصة الفقه المالكي ثم الظاهري في الأندلس مما أفضى إلى إضفاء الطابع الإسلامي للمدن الاندلسية سواء القديمة أو التي أنشئت في العصر الإسلامي للمدن الإسلامية متأثرا بتخطيط مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم- في الحجاز بشبه الجزيرة العربية غالبا. [1]

4- الطبوغرافيا التي فرضت وجود رقع عمرانية مختلفة ومتنوعة للغاية؛ مما أدي إلي ظهور عدد من الأشكال أو الأنماط الحضارية المحددة. حيث تتوسط المدينة قلب الكور (القرى) الأندلسية كعاصمة للإقليم. ويحيط السور بالمدينة دون الكور. وتمد الكور؛ المدينة بما تحتاجه من السلع الإنتاجية والغذائية. بينما تقوم المدينة بواجب الدفاع عن الكور وأحوازها وحماية أهل القرى داخل أسوارها وقلاعها وحصونها أثناء الحصار للمدينة. مثل فترات الغزو القشتاليين الصليبي للقرى ونهبها . [2]

---

[1] Irving T.B., Falcon of Spain , Lahore , 1962, p.225.
[2] Jan Read , the Moors in Spain and Portugal , Landon , 1979, p.221 , 222.

5- ظهــور مبدأ الجماعــة الوظيفية؛ وأثرها في ظهــور العــديد من الخطط (الأحياء) بالمدن الأندلسية. والجماعة الوظيفية مجموعة من الســكان، إما طارئون على أهل المدينة أو من بين فئة من أهلها؛ يقومون بالوظائف الكمالية في الدولة. والتي لا يقوم بها أصحاب الطبقة الغنية "الإستقراطية" فـــي الدولة [1].

فمثلاً ظهور خط اليهود ببعض المدن الاندلســية أو ما يعرف بلســان حال أهل الأندلس بقصــبة اليهود. فاليهود يقومون بأعمال الصــرافة والتي تختص بالسـكة وجودتها؛ والمصــاغ وعيار الذهب والفضــة. ورغم خيانتهم المتكررة للدولة الإســلامية الأندلسـية في كثير من فترات الضـعف؛ إلا أنهم في فترة قوة الدولة كانوا ملتزمين بشروطها. وكانت غالبًا ما تقع قصبات اليهود في غرب المدن الأندلسية. فيما يعرف بمنطقة الملاح. وهي الأراضي ذات الصباغ الملحي والتي يكره أن يسكنها سكـــان المدينـــة الاأندلسيـــة من المسلمين والمستعربين (النصارى اللاتين وإيبريين ذو اللسان العربي). ولقد أثرت فكرة الجماعة الوظيفية في تخطيط المدن المغربية بالنسبة لأحياء اليهود والنصارى فيما بعد. فإن سمح حكام المغرب المسلمين في بعض الأحيان باختلاط خطط المسلمين والنصارى معاً؛ لم يسمحوا لليهود بذلك على الرغم من التسامح الكبير الذي حظي به اليهود خلال العهد المريني، والســعدي، والعلوي. ومن أشــهر المدن المتأثرة في تخطيط قصــبة المـــــلاح بالأنــدلس مدينــة مكنــاس خــلال عهد المولى إسماعيل العلوي 1083-1139هـ / 1672-1726م؛ غير أن خططهم في مكنـاس وبلاد المغرب العربي الكبير عرفت بـالملاح لأنهم كـانوا يضـــعون الملح فوق جروح رؤوس اللصوص وقطاع الطرق؛ ويشهرون بهم على حمار بالمقلوب؛ بين أخطاط المسلمين والنصارى [2]

6- وتتكون أغلب تخطيطات المدن الأندلسية من المسجد بالقلب والأسواق والسويقات (سويقة الخضار والفاكهة) والفيسـاريات و القصـر أو القصـبة (القلعة التي بها مركز الحكم) وأقصــاب أهل الكتاب

---

(1) Legendre , Maurice , Nouvelle Historie de Espagne Paris , 1938, p.p. 200-205

(2) أحمد الناصري، الأستقصا في أخبار المغرب الأقصى، ج8 ، ص60؛ خالد عبد الكريم محمد إمام أبو شنب، التخطيط العمراني والآثار المعمارية للمولى إسماعيل العلوي بمدينة مكناس بالمغرب الأقصى 1083هـ1672م-1140هـ/1727م؛ قسم الآثار-شعبة الآثار الإسلامية- كلية الآداب- جامعة عين شمس، القاهرة، 11 فبراير 2012م، ص.63.

(القصبة هنا بمعني الحي أو الخط) والشوارع والدروب. وتدخل كل هذه المساحة من الأرض في سياج جيد التنظيم التشجيري بأسلوب المتاهة المتعاكسة بين خطط الأحياء. يتخلله أبراج بالأسوار. ثم أخذت تنمو المدينة الأندلسية مع مرور الزمن فظهرت أحياء خارج أسوار المدينة؛ وهي ما يطلق عليها الربض. وكلما ازدادت مكوناتها المدينة؛ زادت مساحتها؛ وزادت مساحة المسجد الجامع. الذي يصلى فيه الصلوات الجامعة (الجمعة و العيدين) و غالب المساجد الأندلسية الجامعة بالمدن ذات الأنهار؛ يطل عليها المسجد الجامع كمسجد الجامع بمدينة قرطبة .[1]

7- يغلب على عمائر الحدائق و المنيات (الفيلا) و القصور الأندلسية بالمدن وجود الحدائق التي تحيط بها؛ كما يوجد بركة مياه و فسقيات (أي ما يعرف بحمام السباحة الآن و النافورات)

8- تنقسم أماكن المقابر بالمدينة الأندلسية إلى مقابر داخل و خارج أسوار المدينة. فأهل الكور التابعة للمدينة يدفنون خارجها؛ و أهل المدينة وعلية القوم بها يدفنون بداخلها (أي داخل الأسوار).

9- و القصور و المقابر و المتنزهات و الحدائق العامة و الحمامات بالمدينـــــة الأندلسية يطلق عليها في لسان أهل الأندلس " مكملات المدينة ".[2]

10- شبكة توزيع المياه و الري كانت من أهم المؤسسات الحبيسة في المدن الأندلسية. ومنها أنتقل نظام حبس المياه " الوقف على تسـبيل ومدن شـبكات المياه العذب والصـرفي" إلى المدن بالمغرب الأقصى.

11- يثير بعض المستشرقين الهولنديين و الإسبان شبهة أن المسلمين عند فتح الأندلس لم يطوروا سوى ما وجده من مدن رومانية قديمة كانت بيد القوط؛ ومن هؤلاء المستشرق إيسيدرو دى لاس Isiduro die Lase حيث فند رأيه العالم الآثاري الإسباني ليو بولدو تورس بالباس – Lio BoLidu مؤكداً على نقطتين:

---

[1]Un codice inexplorade del , cardobes Ibmn Hazm, en Al-Andalus , 1934, p.p. 110 – 115 .

[2] حسين مؤنس ، معالم في تاريخ المغرب والأندلس ط2 ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، 2001 ، ص110 .

الأولى : أن أغلب المدن الرومانية القديمة قد تعرضت إلي التخريب والإهمال في العهد القوطي؛ مما أدي إلي إنــدراس أغلب معالمها؛ وهذا ما يؤكده علم الآثار .

الثانية : إن الدراســات والحفائر الأثرية تبرهن على أن أطلال الكثير من المدن الرومانية بشـبه جزيرة إيبريا (الأندلس) إنما كانت مطمورة تحت طبقة من التراب قد تصـــل إلي أعماق 4 م وأكثر عند فتح المســـلمين للأندلس. ويكفي دليلاً على ذلك أن المدينة الإسلامية وجدت في الحفائر على بعد متر كمدينة الزهراء الأموية، بينما المدينة الرومانية وجدت أسفلها على بعد 3م. وهذا ما تجده في مدن قرطبة وبلنسية وقرمونة ورندة.[1]

12- إن أغلب التخطيط العمراني "المدني" للمدن الإسلامية الأندلسية ساهم بشكل كبير في تأمين المدينة؛ من حيث أنها بنيت أسـاسـاً على نظام نظرية التخطيط الأمني، فالتخطيط المدني لا يوجد به حصـون أو قلاع. ولكن المسجد الجامع وشبكة من الطرق والتي تتنوع وتتفرع بين الشارع الأعظم والدروب والأزقة والعطفات. وكذلك شبكات الطرق خارج المدينة الأندلسية. خاصـة تلك المدن التي كانت تقع على قمم جبلية؛ ويحيط بكورها الغابات. مما ســـاعد على عمل شـــبكة من الطرق خارج المدينة الأندلسية وفق نظام تدريجي؛ أدى بدولتي قشتالة وليون أثناء حملاتهم لإحتلال المدن الإسـلامية إلي الاســتعانة بالنصـــارى المســتعربين واليهود لتعريف الجيش الصــليبي الغازي خط الســير في هذه الدروب والطرق المتشــعبة بين الغابات والجبال؛ لكي لا يتعرض الجيش الصــليبي للمقاومة. كذلك الحصـــار الطويل وانقطاع الأقوات ونفاذها؛ والعهود التي قطعها ملوك ليون وقشـتالة على أنفســهم للمسلمين؛ ثم نقضوها بعد دخول المدن الإسلامية. وشرط تسليم الحصن الأساسي للصليبيين قبل أي اتفاق يقع بينهم وبين المســلمين؛ ســاعد على ســقوط المدن الأندلســية والحفاظ على تخطيطها. ولئن تغيرت بعد المعالم والمســميات؛ إلا أن الناظر على شـــبكة الطرق والري في المدن الإســـبانية والبرتغالية اليوم يجدها رغم البعد الزمني عن الحقبة الإســـلامية في نفس المناطق التي خطها

---

[1] ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الأسلامية ، ترجمة على عبد الرؤوف (وآخرون)، 2ج ، ط1 ، نشر المجلس الأعلى للثقافة ، ج1 ، ص10 – 14.

المسلمون زمن الدولة الأندلسية. ومن ذلك ساحة الميدان الأعظم بقلب قرطبة والتي أنشأها الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر لاستعراض الجيش الأندلسي في الفترة من 316 – 350 هـ [1]هي نفسها ساحة الميدان الكبرى التي كان يحيي فيها الملك الإسباني خوسيه وزوجته الملكة سيلفيا في العصر الحديث الأعياد والمناسبات. وهي تشبه ساحة الميدان التي تعرف في مدينة مكناس العلوية بالمغرب الأقصى بساحة الهديم. وهذا التخطيط يتضح أكثر بكامل مراحل تطوره المختلفة بساحة المغرب والجزائر؛ خاصة بمدن الساحل والوسط؛ ومدينة قرطاجة والقيروان في تونس. وأما المشرق العربي فنجده في القاهرة في المنطقة الواقعة بين بوابتي زويلة والفتوح؛ وما يوازيه من بوابة باب النصر. وذلك لتوافر مراحل تاريخية معمارية في عصور مختلفة تبدأ من عهد قاهرة صلاح الدين الأيوبي 567 هـ حتى تخطيط القاهرة العلوية في عصر أسرة محمد على وحتى عهد الملك فاروق 1936 – 1952 م. ومن أشهر المدن الأندلسية ذات التخطيط المدني الشبكي الإسلامي بالأندلس؛ مدينة "بطليوس Badjoz وشذونه Sidona ويابرة Evara وباجة Beja والطابية Tapial... وغيرها".

13- أغلب دور المدن الأندلسية وحصونها وكورها؛ كانت تتنوع بين الأحجار والطوب الآجر؛ ونادراً ما أستعمل في البناء الطوب اللبن. وكان يتم استخدام أسلوب البناء القديم المعروف في حضارات الشرق الأدنى القديم الإدية والشناوي.

14- أغلب استخدام المشهر (الصنجة الحمراء أو الصفراء مع الصنجة البيضاء) عكس الأبلق (الصنجة السوداء مع البيضاء) في العقود؛ مثل عقود مسجد قرطبة الجامع. وهذا يتضح في بهو الأعمدة بالمسجد.

---

[1] ليفي بروفنسال ، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج1، ص29-22

15- أكثرت العمارة الإسلامية الأندلسية من استخدام الفسيفساء في المحاريب، وتكسية جدران القصور في عهد الولاة. ثم عهد الإمارة الأموية مثل محراب جامع قرطبة، وقصر عبدالرحمن الداخل بها، وكذلك قصور سرقسطة وبلنسية وقرمونة وملقة؛ وهذا ما أظهرته الحفائر الأثرية بجوار نهر بلانثيا ومنيات Villas وبوريانه BURRIANA و موررويدرا MURUIEDRA [1]

16- أشار ابن خلدون في مقدمته التي ألفها في القرن 9هـ / 15م إلي أن المدينة العربية بالأندلس كانت تقام على قمة جبل أو في شبه جزيرة؛ يكاد يحيط بها الماء من كل جانب أو على شاطئ نهر أو قريبة من جمر كطليطلة. وكان يتم اختيار الموقع في كل الحالات على أساس الأغراض الحربية أو الدفاعية؛ نظرًا للطبيعة التي كانت تمر بها مدن الأندلس. كما أشار أيضاً على أن المنازل كانت محمية بحظار (سور يحتمي أهل المنزل به في حالة تعرض المنزل للمخاطر) وخاصة الفلاحين في الناحية " الكور خارج المدينة" أي أن المدينة يمكن أن تدافع عن نفسها طبيعياً داخلياً وخارجياً دون الحاجة لمساعدة الجيش. [2]

---

[1] ليوبولد وتورتيس بلباس ، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة على عبدالرؤوف البمبي، 2ج ، ط1، نشر المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة ، 2002 ، ج2 ، ص14 ، 15 .

[2] ابن خلدون، (عبد الرحمن بن خلدون)، ت .(808هـ / 1406م)، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق حامد أحمد الطاهر ، ط1، نشر دار الفجر للتراث ، القاهرة ، 2004م ، ص438 .